فى أفق السياسة العالمية

مشاكل البلقان

تناول مستر بيفن وزير خارجية انجلترا فيما تناوله من الشؤون الخارجية فى بيانه الأخير الذى ألقاه فى مجلس العموم فى أوائل شهر يونيه ، مسألة تريستة ، وقال بشأنها إن أخشى ما يخشاه « أن تصبح تريستة بيدقاً تحركه أيدى اللاعبين على رقعة الشطرنج الدولية » . ولكن هل بقى إقليم أو ميناء فى شرقى أوربا أو فى منطقة البلقان ليس للدول فيه أصبع ظاهرة أو خفية تحرك سياسته يميناً أو يساراً وفق الآراء والمبادئ التى تدين بها الدولة التى تحركه ؟

لقد قست الطبيعة والظروف على شعوب البلقان ، ففرّقت بينهم فى الجنس واللغة والثقافة والمذهب الدينى ، كما فرّقت بينهم سلاسل الجبال والمرتفعات التى تقطع شبه الجزيرة طولا وعرضاً ، وجعلت المواصلات فيما بين البلاد أمراً بالغاً منتهى الصعوبة ، اللهم إلا البلاد التى جمع بينها نهر الدانوب وفرقتها يد السياسة !

وإذا كان معظم سكان البلقان ينتمون إلى العنصر السلافى ، فإن فى هذه البلاد خليطاً عجيباً من مختلف الشعوب والنحل ، فمنهم الأتراك والأرنؤوط أو الألبانيون والإغريق والمقدونيون والرومانيون والصرب والكروات والسلوڤين والبلغار ، ومن هؤلاء جميعاً الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمون واليهود . وكان من نتيجة هذه الخلافات الجنسية والدينية أن استفحلت أسباب العداوة والكراهية المحلية بين هذه الشعوب ، ثم كان تنازع الدول الكبرى فيما بينها لمد سلطانها وبسط نفوذها على هذه الأقاليم ؛ فأودى ذلك نهائياً بطمأنينتها وأمنها ، وجعل منها ، كما يقولون ، برميلا جافاً من البارود يوشك فى كل لحظة أن ينفجر ، فلا تقتصر ناره على الأرض المجاورة ، بل تتعدى الحدود وتتصل ألسنتها بالمحيط الدولى ، فتشتعل نيران حرب كبرى .

ولقد انفجر البارود فى صيف سنة ١٩١٤ فى سرايڤو إحدى مدن الصرب ، فقامت على أثر ذلك الحرب العالمية الأولى . ومن ألبانيا اندلعت فى ربيع

سنة ١٩٣٩ إحدى شرارات الحرب العالمية الثانية حين هاجمها مسوليني فى يوم الجمعة الحزينة من ذلك العام ، وشرّد مليكها وأسرته ، ووضع تاج ألبانيا على رأس ملك إيطاليا المثقل بالسنين والتبعات . وإذا سارت الحال فى البلقان على النهج الذى تقضى إليه سياسة الدول الكبرى فى هذه الآونة ، فأكبر الظن أن حربا بل حروباً أهلية وعالمية أخرى ستستعر من جديد ، وتأخذ سبيلها من هذه الأقاليم المنكودة .

ولقد يدهش الباحث إذ يعلم ان البارود الذى ينفجر فى البلقان بين آونة وأخرى ليس من صنع أهل البلقان ، ولا هو من منتجات هذه الأقاليم التى يعيش معظم أهلها على الزراعة والصناعات الزراعية ، ولكن الدول الكبرى هى التى تصدر البارود إلى هذه البلاد ، حتى إذا انفجر وتناثر شرره استنكرته وأنحت باللائمة على شعوب هذه البلاد ، ونسبتهم إلى الشر والعدوان . والحق أنه لا عيب فى هذه الشعوب إلا فقرها المدقع ، وجهلها المروع ، وحبها الملتهب للحرية والاستقلال

على أن الدول لم تقتصر على تصدير البارود إلى شعوب البلقان ، بل كانت تصدر إليها كذلك التيجان والملوك كلما أفلح شعب منها بفضل مساعدة تلك الدول فى التخلص من نير الأتراك ، وأنشأ له حكومة وطنية . وعلى ذلك اعتلى عرش اليونان الملك جورج الأول من أمراء الدانمرقة ، وكانت زوجته أميرة روسية ، وأخته زوجة ولى عهد انجلترا الذى خلف والدته الملكة فكتوريا باسم إدورد السابع . وحكم رومانيا الملك شارل الأول أمير أحد فروع أسرة هوهنزلرن الألمانية . وجلس على عرش بلغاريا أمير ألمانى آخر باسم الملك فرديننند . وكذلك اختير لألبانيا فى أول عهدها بالاستقلال سنة ١٩١٣ الأمير ويد الألمانى . أما مملكة الصرب ، وهى يوغسلافيا الحديثة ، فهى الدولة البلقانية الوحيدة التى لم تنتفع بهذه الواردات المتوجة ، ورفعت إلى عرشها أميراً اختارته من بين أسرها العريقة . وكان آخر ملوكها بطرس الثانى الذى نحى عن العرش فى سنة ١٩٤٥ .

ومن العجيب أن هذه الشعوب قد خضعت للحكم التركى أو الحكم النمسوى مدة تتراوح بين أربعة قرون أو خمسة ، فلما همت فى القرن التاسع عشر أن تتحرك للثورة وطلب الاستقلال بدأت الدول تتدخل وتمدها بالنار والحديد وبالرجال ثم بالتيجان ، حتى إذا ما تنسمت نسيم الحرية ونعمت بتحقيق أمانيها وظفرت

بالاستقلال السياسى ، بدأت تحس ثقل تبعاتها وتشعر بالفراغ العظيم الذى أحدثه زوال الحكم التركى أو النمسوى من محيطها ، فراحت تتخبط وتتعثر فى مختلف المشاكل والصعاب إما داخل حدودها وإما بين بعضها وبعض . ذلك أن كلا منها قد حرص فى عهد الاستقلال على توسيع حدوده على حساب جيرانه ، ثم وطّن كل منها نفسه — فيما عدا تركيا واليونان طبعاً — على الوصول إلى ميناء يطل على مياه البحر المتوسط من قرب أو بعد .

لذلك ما كادت تنتهى حرب الاستقلال البلقانى ضد تركيا سنة ١٩١٢ حتى قامت الحرب البلقانية الثانية سنة ١٩١٣ بسبب توزيع الأسلاب بين المنتصرين فى الحرب الأولى ؛ فهاجمت بلغاريا حليفتيها الصرب واليونان ، وما لبثت رومانيا أن تدخلتا وتركيا فى الحرب ، فاستردت تركيا أدرنة ، واحتلت رومانيا دبروجة ، وخسرت بلغاريا معظم ما كسبته فى الحرب الأولى . ومن ذلك نشأ العداء والكراهية بين بلغاريا وسائر دول البلقان ، ذلك العداء الذى استحكم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ؛ وكانت بلغاريا تحارب فيها إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، فكان جزاؤها أن حرمت المنفذ الذى طالما منّت به نفسها على بحر إيجه ، كما فقدت جزءاً كبيراً من تراقيا لليونان ، ومن مقدونيا ليوغسلافيا .

وكان من بواعث الأمل على استقرار الحال بعض الشىء فى البلقان عقب تلك الحرب أن روسيا كانت من غمرات ثورتها الكبرى فى شغل شاغل عن البلقان وعن أوربا عامة ، وكانت تركيا قد تراجعت إلى آسيا الصغرى ، فنقلت عاصمتها من اسطنبول إلى أنقرة ، واشتغلت هى كذلك بنهضتها الكمالية . وبذلك أتيحت لدول البلقان فترة استجمام ساعدتها على النهوض بشؤونها الداخلية ، وترقية مرافقها الصناعية والعمرانية وجمع كلمة مواطنيها على رغم اختلاف جنسياتهم ومذاهبهم . وقد ظهرت دلائل هذا التقدم جلية فى رومانيا ويوغسلافيا بصفة خاصة ، حيث كشفت منابع البترول وقامت فيها نهضة صناعية وحربية كبرى ، فارتفع مقام رومانيا إلى مصاف الدول المهمة ، وأصبح ليوغسلافيا على البحر الأدرياتى موانى وقواعد حربية تنافس بها إيطاليا .

وكذلك نهضت تركيا واليونان ، وسوّت الحكومتان ما كان بينهما من خصومات وعداء مستحكم بفضل السياسة التى انتهجها أتاتورك بعد هزيمة اليونان فى آسيا الصغرى ، وإنشائه تركيا الجديدة ؛ فقد قرّ رأى الزعيم التركى على

اقتلاع أسباب النزاع بين الشعبين المتجاورين من جذورها ، وذلك بتبادل الأقليات بينهما ، فتفتح اليونان أبوابها لمليون وربع مليون من الإغريق المتوطنين فى تركيا مقابل نصف مليون من الأتراك تستردهم تركيا من اليونان وقد فعل هـذا التبادل — على رغم ما لاقاه المتبادَلون من صنوف الآلام والمتاعب الجسمانية والعاطفية — فعل السحر فى تحسين العلاقات بين الشعبين ، حتى أصبحا كأنهما أسرة واحدة متفقة المصالح والأهداف .

وقد بدت آثار هذا التضامن بين الحكومتين فى سياسة البلقان الجديدة . وذلك أنه ما كادت تختفى روسيا من الميدان السياسى فى البلقان والبحر المتوسط عقب ثورتها ، حتى انبرت إيطاليا الفاشية تريد أن تحل من دول البلقان محل روسيا ، فتنشر نفوذها السياسى فى ربوع البلقان وشرقى البحر المتوسط . وفعلاً بدأت تعقد معاهدات الصداقة بينها وبين دول البلقان . ولـكن سرعان ما بانت نيات إيطاليا التوسعية عند ما احتلت جزيرة كرفو التابعة لليونان فى سنة ١٩٢٣ على أثر حادث وقع على الحدود بين ألبانيـا وإيطاليا ، وقتل فيه رئيس البعثة الإيطالية فى اللجنة التى كانت تعين الحدود بين الدولتين . ولم تنسحب إيطاليا من الجزيرة إلا بعد تدخل مجلس عصبة الأمم وقيـام اليونان بدفع غرامة فادحة لإيطاليا . وقد تحققت مخاوف البلقان من ناحية إيطاليا عند ما أذيعت شروط معاهدة تيرانا بين إيطاليا وألبانيـا سنة ١٩٢٦ ، وكان مخواها أن تصبح ألبانيا فى حقيقة الأمر إحدى ملحقات إيطاليا ، فتنشئ فيها الطرق والقلاع والموانى لتثب منها عنـد الحاجة على يوغسلافيا أو اليونان ، ولتستطيع أن تتحكم فى مضيق أترنتو عند مدخل البحر الأدرياتى ، فيبقى الأسطول اليوغسلافى الحربى والتجارى تحت رحمة إيطاليا .

عند ذلك تفتحت أعين دول البلقان ، وأدركت أنه إذا لم تتحد وتعتمد على نفسها ، فإنها ستستمر ألعوبة فى أيدى الدول الـكبرى تتقاذفها كيفما شاءت . وفجأة وضح لشعوب البلقان أن هناك مسائل ومصالح تهمهم جميعاً ، وأنهم قد وصلوا من النضج السياسى إلى درجة خليقة بأن تجعلهم يقفون صفًّا واحداً أمام مطامع الدول وعدوانها عليهم . وعلى ذلك أنشأوا بفضل مساعى تركيا واليونان الميثاق البلقانى سنة ١٩٣٤ بين تركيا واليونان ويوغسلافيا ورومانيـا ولم تشذ إلا ألبانيا وبلغاريا ؛ إذ كانت الأولى فى سياستها تابعة لإيطاليا ، وكانت الثانية

تطمع فى إعادة النظر فى معاهدات الصلح، على حين قد نص الميثاق على حفظ الحالة الحاضرة فى البلقان. وكان عقد الميثاق أكبر صدمة سياسية أصابت سياسة الدول الطامعة بصفة عامة وإيطاليا بصفة خاصة؛ فلأول مرة فى تاريخها وقفت دول البلقان على قدميها تنادى أن البلقان للبلقانيين.

وقد كان الميثاق خير درع لدول البلقان فى أزمة الحبشة سنة ١٩٣٥، فوقفت كتلة واحدة إلى جانب العصبة وبريطانيا ضد الطغيان الفاشى. وكذلك وقفت دول البلقان تناصر تركيا فى سنة ١٩٣٦ عندما دعت مؤتمر الدول فى منترو ليقرر النظام الجديد للمضايق فى مصلحة تركيا. ولكن وا أسفاه لم تمض إلا سنوات قليلة على الميثاق حتى قامت الحرب العالمية الثانية. فالتزمت دول البلقان الحيدة فى أول الأمر، ثم لم تلبث فرنسا أن انهارت ودخلت إيطاليا الحرب، وحسب مسولينى أن الفرصة قد سنحت أخيراً لتحقيق مطامع إيطاليا الفاشية غرباً وشرقاً، فسيّر قواته من ليبيا ضد بريطانيا فى مصر، وتحركت كتائبه من ألبانيا ضد اليونان، فوقف الإغريق أمام المعتدين وقفتهم التى استرعت إعجاب العالم. وتحرج مركز المحور فى البلقان، فحولت ألمانيا وجهها من الغرب إلى الشرق وأنزلت جحافلها ودباباتها وطائراتها تكتسح دول البلقان واحدة بعد أخرى حتى لم ينج منها سوى تركيا. وافتقد الناس ميثاق البلقان فجعلوا ينقبون عنه فلم يفوزوا بطائل وسط جلجلة المدافع وهزيم القنابل وضجيج الطائرات. وماذا يغنى الميثاق؟ ولو أنه كان اتحاداً لا مجرد عهد ووعد لما أبقت منه الحرب الخاطفة التى حالفت الألمان فى سنى الحرب الأولى أى أثر، وهى التى داست المواثيق والمعاهدات، وبددت المحالفات ومزقت الجيوش شر ممزق!

وبذهاب ميثاق البلقان وانتهاء الحرب، سارت دول البلقان سيرتها الأولى وعادت مسرحا لأسباب الكراهية المحلية والمنافسات الدولية. وقد تعقدت مشاكلها فى هذه المرة على أثر عودة روسيا أمهم السلافية الأرثوذكسية الكبرى وظهورها على مسرح السياسة فى دور البطولة العالمية. وإذا ما اجتمعت الأم بفراخها فعسير عليها أن تدع لأحدمنها حريته أو استقلاله، بل إن غريزة الأمومة فيها لكفيلة أن تدفعها يوما إلى احتضانهم وضمهم إليها وحمايتهم من الأيدى التى تمتد إليهم، ولو كانت تمتد لإطعامهم!

وفى هذه المرة لاتريد روسيا أن يفلت منها زمام البلقان كما أفلت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، فهى تعتبر نفسها زعيمة الشعوب السلافية حقا وصدقا وتعتبر البلقان منطقة نفوذها الخاصة. وقد نزلت أخيراً عن عدائها للكنيسة ورجالها، فاستعادت زعامتها الأولى للأرثوذكسية التى تنتمى إليها الكثرة العظمى من سكان البلقان. وتريد روسيا أن يكون مقامها فى البلقان شبيها بمكانة الولايات المتحدة من جامعة الجمهوريات الأمريكية، مع فارق واحد هو أن جمهوريات أمريكا تتمتع باستقلالها وسيادتها، أما حكومات البلقان فتريدها روسيا على أن تكون وفق نظامها الشيوعى وعلى هواها.

وتحتاج روسيا إلى ألوف مؤلفة من عمال البلقان؛ ليعوضوها عما فقدته من ملايين الشبان فى الحرب الأخيرة، كما أنها تريد أن تعمل لكسب أسواق البلقان فى التجارة كما كسبتها منهم ألمانيا قبل الحرب الأخيرة، حتى بلغ ماتصدره ألمانيا لرومانيا ويوغسلافيا ٤٠ ٪ من وارداتهما. ولا يتحقق لروسيا ذلك التفوق الاقتصادى إلا إذا نهضت بصناعاتها وأنتجت مثل ما كانت تصدره ألمانيا للبلقان من عُدد وآلات ثقيلة وخفيفة ومصنوعات مختلفة. ولا سبيل إلى هذه النهضة إلا إذا توافرت لروسيا الأيدى العاملة التى لايتم تدريبها إلا بعد سنوات طويلة. وفى هذه الأثناء إما أن تخضع روسيا لقيام مبدأ حرية التجارة فى البلقان، وإما أن تأباه فتتعرض شعوبه وحكوماته لكارثة اقتصادية محققة.

وكما أن روسيا تريد أن ترث ألمانيا فى مركزها الاقتصادى فى البلقان، فإنها تعمل كذلك جاهدة على أن تكون وريثة إيطاليا فى البحر المتوسط، حتى يصحح التوازن الدولى فى حوض هذا البحر بعد أن اختل بذهاب قوة إيطاليا البحرية فلا تطغى فيه بريطانيا وفرنسا دون مقابل. لذلك بدأت روسيا تطالب بنصيبها فى قواعده الاستراتيجية، فلم تكتف بالجلوس إلى جانب انجلترا وفرنسا وأمريكا فى منطقة طنجة الدولية كما تقرر فى العام الماضى، بل جعلت تطالب بالوصاية على طرابلس أو جزر الدوديكانيز، ورفضت أن تجدد معاهدتها مع تركيا حتى تجاب إلى طلبها فيما يخص المضايق، ويقولون إنها تطالب الآن بقاعدة حربية فى منطقة المضايق، وبمقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس، كما كانت تريد أن تفعل إيطاليا الفاشية من قبل.

وتحقيقاً لهذه السياسة أيضاً وقفت روسيا تسند جمهورية يوغسلافيا الناشئة

فى مطالبتها بضم تريستة ومنطقة ڤنيزيا جوليا على البحر الأدرياتى ، وقد احتلت منها ميناء فيومى وما جاورها من الأراضى . ويبدو أن ما نال الطليان من الخزى والهوان فى الحرب الأخيرة سيقلل من أمل إيطاليا فى الاحتفاظ بهذا الإقليم ، لاسيما أن الكثرة الطليانية فى هذه البقاع ليست فى الحقيقة إلا كثرة اصطناعية حديثة العهد غير متأصلة فى صميم البيئة ، وأن عدداً كبيراً من هؤلاء الطليان قد اعتنقوا أخيراً كغيرهم من العمال فى المدن والموانى فى أنحاء أخرى مبادئ الحزب الشيوعى ، وأصبحوا لا يرغبون فى العودة إلى الحكم الإيطالى الذى ناوأ الشيوعية فى الماضى . وقد أكد مستر بيڤن فى خطبته الأخيرة أنه لا مناص من تحويل تريستة إلى ميناء دولى حر للجميع ، تستفيد منه يوغسلافيا وسائر دول أوربا الوسطى .

وتهدف حكومة السوڤيت فى مناصرتها ليوغسلافيا إلى السيطرة على البحر الإدرياتى الموصل للبحر المتوسط بعد أن أصبحت يوغسلافيا وألبانيا جمهوريتين تسيران على النهج الشيوعى .

وكذلك تقف حكومة السوڤيت إلى جانب بلغاريا العزيزة عليها . فعلى الرغم من أن بلغاريا قد تعاونت مع المانيا ، فإن صلات الدم الوثيقة التى تربط بلغاريا بروسيا ، لم تنفصم عراها حتى فى أحلك ساعات الحرب عند ما كانت ألمانيا تسيطر على بلغاريا . واستناداً إلى هذه الصلة تطالب بلغاريا بتحقيق حلمها فى بحر إيجه وفى تراقيا ومقدونيا على حساب اليونان . ولم تشأ بريطانيا بعد الحرب الأخيرة أن تجازف بترك اليونان حرة تتنازعها عوامل البلشفية من جهة والرجعية من جهة أخرى ، فأبقت فيها قواتها خوفاً على مصالحها الحربية فى البحر المتوسط . ومع أن الأمل كبير فى أن تحتضن اليونان جزر الدوديكانيز ورودس فأكبر الظن أن انجلترا ستظل محتفظة بقبرص . وليس من شك فى أنه إذا انجلت القوات البريطانية عن اليونان بعد استفتاء الشعب فى موضوع الملكية ، فإن النفوذ الشيوعى سيطغى على البلاد ويصبح مصير البلاد مربوطاً بعجلة السوڤيت . لذلك تعتبر مسألة نظام الحكم فى اليونان من أهم أسباب النزاع الدولى الحالى .

أما فى رومانيا فقد استردت روسيا إقليم بساربيا وأصبحت الحكومة فيها موالية للسوڤيت ، وكذلك فى ألبانيا قامت حكومة جمهورية موالية لروسيا برياسة أنور حجة ، بعد أن ألغيت فيها الملكية فى أوائل هذا العام .

وأخيراً تبقى روسيا وجهاً لوجه أمام تركيا ، وهى بحكم موقعها عند أهم النقط الاستراتيجية فى البحر المتوسط ، ولأن حكومتها الفتية الحالية تمثل أقوى شعوب البلقان وأشدهم مراساً وأكثرهم عدة وعدداً فى الحرب ، فضلا عن ارتباطها بأواصر الصداقة مع أمريكا وبريطانيا — لهذه الأسباب جميعاً تعتبر تركيا المحور الذى يدور عليه مصير البلقان والشرق الأوسط الذى «تبلقن» أخيراً ، وشاكل صنوه فى أخطاره ومنافساته . فإذا لم تسوَّ العلاقات بين تركيا وحكومة السوفيت بشأن المضايق وحدود تركيا الشمالية الشرقية ، فإن برميل البارود قد يزود هذه المرة بمواد أشد فتكا وأعم خراباً من البارود ، وحينئذ يتاح للدول أن تجد حلاً نهائيًّا لمشاكل البلقان وغيرها .

ولعل للموضوع بقية فى فرصة أخرى .

محمد رفعت